

## من ثقافة مقاومة إلى ثقافة مقاومة

□ نداء أبو مراد

أشدُّ تأييد، رغمًا عن الحملة الدعائية المعاكسة التي شنها مناصرو الغرب في لبنان، وذلك لثلاثة اعتبارات:

أ - الاعتبار الأخلاقي. ربح حزب الله معركةً أخلاقيةً كبرى ضدَّ الكيان الصهيوني، إذ خاض حرباً دفاعيةً مركزةً على العسكر الإسرائيلي، في مقابل اعتماد الآلة العسكرية الصهيونية على قصف المدنيين والبنى التحتية ظهرت زمره المحافظين الجدد كحامية لدولة متوحشة إرهابية، وظهر السيد حسن نصر الله كمرشدٍ أُمميٍّ في أخلاقيات النضال العادل، معتمداً على «الدم المنتصر على السيف»

ب - الاعتبار الوطني. بيّنت هذه الحربُ العدائيةَ المطلقةَ للكيان الصهيوني حيال لبنان، بحيث لم يعد من الممكن لأيِّ مواطنٍ لبنانيٍّ إلا وأن يعتبرَ هذا الكيانَ الخطرَ الأكبرَ على الوطن، فيناهضه، ويرجو تفكيكه ونزع سلاحه، وأن يحمّل الإدارة الأميركية الحاليةَ مسؤوليةَ الدمارِ لأنّها تمثلُ الدعامَةَ الكبرى للعدوان الإسرائيليِّ الإرهابيِّ على لبنان.

ج - الاعتبار العملائي. شكّل صمودُ المجاهدين اللبنانيين الأسطوريِّ، في وجه محاولات الاجتياح الإسرائيليِّ البرِّيِّ، تحولاً كبيراً في تاريخ الصراع العربيِّ الإسرائيليِّ، إذ أثبت مجدداً، وبشكلٍ علنيٍّ لا جدلٍ فيه، إمكانيةَ إلحاقِ الهزيمةِ بالهزيمةِ عسكريّةٍ كانت تُعتبرُ جزافاً متفوّقةً على جيوش العرب مجتمعة. وإضافةً إلى الفاعليةِ القتاليةِ المذهلة، فاقت المقاومةُ العدوَّ كثيراً على صعيدِ المصادقةِ الإعلاميةِ، إذ ظهرَ السيدُ حسن نصر الله، كما قنواتُ الحزبِ الإعلاميةِ، صادقاً في خطابه المواقفِ والشارح للمعركة، في حين ظهرَ الصهاينةُ فاشلين من خلال ادعاءاتهم الكاذبة وحربهم النفسية المتهورّة.

ولكي يشعُر اللبنانيون من خارج البوتقة الشيعية بمثل هذا التعاطف مع تيارٍ مقاومٍ كربلائيٍّ، وصولاً إلى اعتباره خيراً ضامناً للوطن في وجه العدوان الصهيوني، كان لا بدَّ من أن تتجلى صحّةُ النضال من الزاويتين الأخلاقيةِ والوطنيةِ، وأن ينأى كفاحه عن أيِّ طابعٍ انتحاريٍّ، وأن يتسمَّ بالمصادقيةِ والواقعيةِ العملائيةِ.

فاجأتني حربُ تمّوز ٢٠٠٦، كما فاجأت اللبنانيين جميعاً، بضرورتها، وبوحشيةِ العدوان الصهيونيِّ الأميركيِّ، ببسالةِ المجاهدين، بتألّقِ السيد حسن نصر الله فاجأتني بالحماس الذي حلَّ في نفسي حيال المقاومة الإسلامية، أنا الواقع مبدئياً في تباين مع معطياتٍ متعدّدة من معادلتها، إن من حيث إيماني المسيحيِّ الأرثوذكسيِّ، أو من حيث انتهاجي فكراً سياسياً علمانياً ديموقراطياً عربياً ونسقاً نضالياً لاعنفياً.

أحاول في هذه العجالة تفسيرَ تأييدي المتحمّس للمقاومة، ثمَّ طرّحُ أفكار حول دور المثقف في بلورة التكامل بين مفهومي «ثقافة المقاومة» و«ثقافة مقاومة» (بكسر الواو) بعد ذاتها.

### مفارقات الوعد الصادق

جاءت عمليةُ «الوعد الصادق»، فوجدتُ نفسي أبرّها تلقائياً تجاه بعض الأهل والأصدقاء الذين أظهروا استياءهم حيالها وحيال توقيتها، إذ أوّدت، بحسب تعبيرهم، إلى ردٍّ مدمرٍ على لبنان في عزِّ الموسم السياحيِّ ثمَّ أطلت وزيراً خارجية الولايات المتحدة الأميركية بشعار «الشرق الأوسط الجديد»، فاتّصحت الصورة إنَّها حربٌ أميركيةٌ بأداة عسكريةٍ إسرائيليةٍ، تُهدَف إلى تدمير حزب الله، وإلى تطويع لبنان، أو تفتيته طائفياً (على النسق العراقيِّ)، وذلك تمهيداً لضرب إيران وسورية، وتحويل المنطقة إلى كياناتٍ طائفيةٍ وإثنيةٍ، يهيمن عليها المحورُ الأميركيُّ الصهيونيِّ. في تلك اللحظة، ومع تكاثر المجازر بحقَّ المدنيين، ومع تزايد إلحاق الدمارِ بالمنازلِ وبالبنى التحتيةِ، ومع بثِّ رسائل السيد حسن نصر الله التلفزيونية المؤثّرة، واستبسالِ المجاهدين في صدِّ الهجمات البريةِ وإلحاق الهزائم بالجنود الصهاينة، اقتنع المتردّدون من حولي بصوابِ دفاعي عن شرعيةِ المقاومة.

### مقومات التأييد

أظنُّ أنّ شريحة كبيرة من اللبنانيين من غير المناصرين الطبيعيين لحزب الله أصبحت تؤيّدُ المقاومة في أواخر تمّوز



غابرييلا بوليسوفا

القنطرة: خصبٌ جنوبي، وتحت حرقٍ إسرائيلي

### من ثقافة مقاومة إلى ثقافة مقاومة

الآن، وقد وضعت الحرب أوزارها، يمكن للمثقف اللبناني المترجم بالنسبة للمقاوم أن يضطلع بمهام جديدة، إضافة إلى التحليل والتأثير الفكري على الذين يسمعون أو يقرأونه في موضوع الالتزام بالمقاومة وتشجيعها. يمكنه المشاركة في الأعمال التطوعية الآيلة إلى دعم صمود الشعب الذي استهدفه العدوان، والإسهام في عملية إعادة بناء ما تهدم بعيداً عن ذهنية المقاتلين السياسيين. كما يمكنه العمل على ترسيخ ما دُرِّج على تسميته «ثقافة المقاومة» في حقبة الهدنة، أي العمل على إنتاج خطاب ناجع من الزاوية المنهجية، يدعم الخيار المقاوم على الصعيد الفكري، ويؤثر في الرأي العام، وبخاصة في موضوع رفض نزع سلاح حزب الله.

لكن يبدو لي أن ثمة خياراً تخصصياً يمكن للمثقف أن يناضل من خلاله، هو العمل على إرساء مفهوم الثقافة المقاومة (بكسر الواو) بحد ذاتها؛ ويعني هذا المفهوم: تحصين الثقافة المحلية، المرتبطة بالشعب وبالأرض المستهدفتين، في وجه هجمة المنظومة الثقافية المقترنة بالعدو.

هذه الإشكالية مطروحة مثلاً في نطاق علم الاقتصاد: يقوم اقتصاد المقاومة على وضع الآليات الاقتصادية الضرورية

لدعم المجاهدين على أرض المعركة وصمود الشعب المحتضن للمقاومة. وأما الاقتصاد المقاوم (بكسر الواو) فيعتمد على رؤية اقتصادية إستراتيجية شاملة تتصدى لمقومات المشروع الاقتصادي الخاص بالطرف الخصم، وذلك من خلال تنفيذ إصلاحات بنيوية وانتهاج سياسات اقتصادية متباينة، قدر المستطاع، مع توجهات الساحة المقابلة والمشاريع التي تبغى تطبيقها على الساحة المقاومة، مثل الشق الاقتصادي من مشروع «الشرق الأوسط الكبير» أو «الجديد» في تصور واضعه شمعون بيريز - وهو فرع من مشروع النظام العالمي الجديد، أي مشروع العولة النيوليبرالية الأميركية. هذا لا يعني العودة إلى نموذج «هانوي»، أي إلى اقتران مقاومة الإمبريالية الأميركية باعتماد النظام الاقتصادي الشيوعي. لكن لا بد من أن تتم ترجمة مشروع المقاومة في لبنان في توجهات اقتصادية مغايرة جذرياً للسياسات المنتهجة منذ ١٩٩٢. فعندما قرّر المهاتما غاندي الشروع بثورته التحريرية اللاعنفية على الإمبراطورية البريطانية، قام بحملته التاريخية المعروفة بـ«مسيرة الملح»، بحيث قرّن موضوع تحرر الهند السياسي من الاستعمار البريطاني بموضوع استرجاع الشعب الهندي لموارده الإنتاجية. كذلك لا يُمكن مجابهة الخطر

## من ثقافة مقاومة إلى ثقافة مقاومة

أصولها الطقسية، وبين الإيقاع الدوري الحركي، المهيم على السياقات الوثنية والديوية والحديثة.<sup>(٢)</sup>

كذلك تحكّم البعد اللحني تجاذبات ثقافية قوية قائمة منذ العصر القديم ما بين الشعوب المشرقية المرتبطة باللغات السامية، واستطراداً في الترنيم الكنسي حول البحر المتوسط في الألفية الأولى (بما في ذلك الترنيم اللاتيني)، وبين الثقافات الهند أوروبية الوثنية. فالأولى تعتمد في تركيب سلالمها اللحنية على الجنس الزلزلي،<sup>(٤)</sup> المتجسّد في توالي مسافات الطنين وثلاثة أرباع الطنين في السلم اللحني، كنموذج أصلي وتعتمد الثانية على الجنس القوي،<sup>(٥)</sup> المتجسّد في توالي مسافات الطنين ونصف الطنين في السلم اللحني.<sup>(٦)</sup>

وثمة تضادٌ أساسيٌّ ثالث في الحقل الثقافي يمكن إسقاطه على حيز الموسيقى، هو جدلية التقليد والحداثة. أمّا التقليد، فيأخذ شكلين في التعاطي مع النماذج الموروثة: التقليد التكراري (قلد زيد عمراً في أمر ما) والتقليد التسليمي أو الشريف (قلد زيد عمراً أمانةً روحيةً أو معرفيةً أو صناعية). في الحيز الموسيقي، يقترن الأول بالتراث الشعبي أو الفلكلوري، بينما يتمثل الثاني بالموسيقى الفنية الإبداعية. وفي حين ينطلق التجديد في التقليد

الصهيوني من خلال سياسات اقتصادية ومالية رعية تقضي على القطاعات المنتجة وتؤول إلى الارتهاق الاقتصادي والمالي للخارج.<sup>(١)</sup>

### من موسيقى المقاومة إلى موسيقى مقاومة

في نطاق مغاير جداً، يمكن التمييز أيضاً بين موسيقى المقاومة وبين موسيقى مقاومة بحد ذاتها. تتشكل الأولى من مجموعة الأناشيد والأغاني الحماسية التي تواكب تياراً مقاوماً معيّنًا، وبخاصة من حيث تلاؤم مضامين النصوص المنشدة والمغناة مع المسعى النضالي. أمّا مفهوم الموسيقى المقاومة، فيرتبط بفكرة صراع سياسي ثقافي يكون قائماً على أرض الموسيقى، أي في نطاق النظام الذي يحكّم تكوين اللغات الموسيقية في بعدي اللحن والزمن، وفي الخلفية الجمالية (الإستيتيكية)، بل من الزاوية الرموزية (sémiotique)، في مستوياتها الثلاثة بحسب رؤية جان مولينو<sup>(٢)</sup>: المستوى المحايد، مستوى الإنتاج، مستوى التلقي.

فالبعد الزمني أو الإيقاعي محكوم بالجدلية القائمة بين الإيقاع الوزني الكلامي، المهيم على نطاق الأديان الإبراهيمية في

١ - راجع Viviane Naimy, *Marchés émergents, financement des PME et croissance économique: étude du cas libanais* (Liban: NDU Press, 2003).

٢ - راجع حول موضوع رموزية الموسيقى. Jean Molino, "Fait musical et sémiologie de la musique," *Musique en jeu*, 17, 1975, pp. 37-52. Jean-Jacques Nattiez, *Fondements d'une sémiologie de la musique* (Paris: Inédit, Union Générale d'Éditions, 1975).

نداء أبو مراد، «مدخل إلى تحليل الارتجال العزفي في التقليد الموسيقي المتقن المشرقي العربي» مجلة البحث الموسيقي، ٢٠٠٥.

٣ - راجع مقالي في هذا الموضوع Nidaa Abou Mrad, "Formes vocales et instrumentales de la tradition musicale savante issue de la Renaissance de l'Orient arabe," *Cahiers de musiques traditionnelles*, "Formes musicales," N 17, Genève: Ateliers d'Ethnomusicologie, 2005, 183-215.

٤ - قسمة مسافة الرابعة التامة إلى ثابنتين متوسطتين وثانية كبيرة

٥ - قسمة مسافة الرابعة التامة إلى ثابنتين كبيرتين وثانية صغيرة

٦ - راجع مقالي في هذا الموضوع Nidaa Abou Mrad, "Echelles mélodiques et identité culturelle en Orient arabe," *Une encyclopédie musicale pour le XXIe siècle*, dirigée par Jean-Jacques Nattiez, vol. III, "Musiques et cultures," (Arles: Actes Sud, 2005), 756-795.



كيرستن شايد

الغدورية الشقق وقد تحولتُ سندويشات<sup>١</sup>

بين القرن الحادي عشر والقرن التاسع عشر، حافظت الكنيسة الأرثوذكسية على لاهوت الآباء الصوفي، وبقي الإسلام بعيداً عن الذهنية الأرسطية، خاصة لدى العرفان الشيعي والتصوف السني، فتترجم ذلك في سوية موسيقية تقليدية إسرارية تسليمية، تعتمد على الأحادية اللحنية، وكأنها تعبير عن التوحيد الإلهي، وعلى نظامٍ مقاميٍّ مقترنٍ بسلام يهيمن عليها النسق الزلزلي، وعلى نموذج الإيقاع الوزني الكلامي.

في الحقبة عينها، انتقل الغربُ تدريجياً من لاهوت مدرسيٍّ أرسطيٍّ إلى حداثة علمية شاملة، فتترجم ذلك في سوية موسيقية حديثة، أخذت شكل النظام الهارموني<sup>(١)</sup> الطونالي<sup>(٢)</sup>، المقترن بالسلم القوي المتساوي التعديل<sup>(٣)</sup> (temperament égal)، والمتعارض كلياً مع النظام الأحادي المقامي الزلزلي الشرقي

بدءاً من القرن التاسع عشر، تغلغت إيديولوجية الحداثة تدريجياً في المشرق العربي، فكانت ردة الفعل الأولى نهضة من

التسليمي من قواعد ثابتة ومن رصيد (خزين) نموذجي موروث (يشكل أساساً لإنتاج رصيد جديد)، تكون مرجعيته موضوعية منزهة، فإن التجديد في الحداثة الموسيقية يعتمد على ذاتية فردية تبيح تغيير القواعد ونقض النماذج التقليدية.

تغلغت الحداثة في ترنيم الكنيسة الغربية بعد أن انشقت هذه الأخيرة عن تقليد آباء الكنيسة الشرقيين اللاهوتي الصوفي وجنحت نحو الفلسفة الأرسطية وتترجم ذلك التوجه الروحي في اعتماد المساوقة، أي تعدد الأصوات، في مقابل تجذر الترنيم الشرقي المسيحي والإسلامي في الأحادية اللحنية (monodique) وفي النسق المقامي وبسبب من اعتماد المساوقة، ارتدت الكنيسة الغربية إلى السلم القوي، في حين بقي الشرق مقترناً بالجنس الزلزلي كذلك انعتق الترنيم الغربي من قيود الإيقاع الكلامي (مع مدرسة الفن الجديد (Ars Nova) فركز على الإيقاع الدوري الحركي، في مقابل احترام الشرق المسيحي والإسلامي للسوية الكلامية

١ - تنسيق المساوقة (تعدد الأصوات polyphonie) على أساس اتفاقات عمودية محكومة بقواعد متغيرة عبر المدارس التأليفية الأوروبية التاريخية

٢ - نظام (harmonique tonal) لتنظيم اللحن على أساس مغاير للنظم المقامية، تنامي في أوروبا بين القرن السابع عشر والقرن التاسع عشر

٣ - حيث يتكوّن الديوان من اثني عشر نصف طنين متساوين

## من ثقافة مقاومة إلى ثقافة مقاومة

إصلاح الغرب من شوائب حداثة، وإعادته إلى إنسانيته الروحانية المفقودة، بعد تعميق الشرق في تقاليد الثقافة التسليمية التجديدية الشريفة، كمرجع للسوية الإنسانية في العالم.

لبنان

داخل<sup>(١)</sup> أي معتمدة على المقومات الثقافية الذاتية، بما في ذلك في الحقل الموسيقي، وهو ما تجلّى في مدرسة عبده الحامولي (١٨٤٣ - ١٩٠١)<sup>(٢)</sup> في وادي النيل، وفي نهضة الرديف الفارسي في إيران.

لكنّ انهيار الشرق الكبير أمام الغرب على الصعد العسكرية والسياسية في الربع الأول من القرن العشرين جعلّ التجديد الموسيقي يعتمد على الدمج (من خارج) بين النظام الغربي الحديث والنظام الشرقي التقليدي - وهو ما آل إلى تهميش تدريجي للتقليد الموسيقي المشرقي العربي، وإلى هيمنة الموسيقى الحديثة الغربية على مسامع أهل الضاد، وصولاً إلى الصنف الرخيص جداً من الأغنية التجارية، المنتشر اليوم أشد انتشاراً. وتشكّل هذه الأغنية الحديثة الاستهلاكية الوجهة الموسيقي للنظام العالمي الجديد، أي للعولمة النيوليبرالية الأميركية. ويأخذ هذا التوجّه أشكالاً متنوعة، منها تيار «موسيقى العالم» (World Music)، حيث يتمّ الدمج بين نكهات موسيقية مأخوذة من تقاليد العالم المتنوعة في بوتقة موسيقية غربية واحدة، وذلك على منوال تيار العصر الجديد (New Age) الذي يحاول الدمج التجاري بين الديانات والفلسفات.

من هنا يُمكن اعتبارُ التصدي للهجمة الغنائية الحديثة الغربية على العالم العربي، وبخاصة على لبنان، نوعاً من المقاومة الموسيقية للمشروع العولمي الأميركي. ويبدو لي أنّ المشرق العربي والفرسي والأنطاكي الجديد الذي سيتمخّض عن سقوط مشروع الشرق الأوسط الجديد بفضل مقاومة الشعوب العربية، وعلى رأسها حزبُ الله - وكلّنا حزبُ الله - يحتاج إلى نهضة ثقافية من داخلٍ تقاوم بشدّة العولمة الأميركية، وتعتمد على الطاقة الجمالية الهائلة المخزّنة في شعوبنا. وهذا لا يعني انغلاقاً على الذات، بل إستراتيجية تهدف في نهاية المطاف إلى

د. نداء أبو مراد

موسيقي وأستاذ وباحث جامعي في علم الموسيقى

١ - راجع. نداء أبو مراد، «مركزية التقليد في عملية التجديد في الإطار الموسقي الشرقي»، النهضة العربية والموسيقى خيار التجديد المتأصل، إشراف.

نداء أبو مراد، عمان. منشورات المجمع العربي للموسيقى، ٢٠٠٣

٢ - راجع نداء أبو مراد، «الفقيه والمرمّ الإصلاح من الداخل (مقاربة بين محمد عبده وعبده الحامولي)»، المصدر السابق